خطبة الجمعة

التي ألقاها أمير المؤمنين سيدنا مرزا مسرور أحمد أيده الله تعالى بنصره العزيز

الخليفة الخامس للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

بتاريخ ٢٠٢٤/١٢/٦

في المسجد المبارك بإسلام آباد في بريطانيا

*****

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله. أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرّجيم. ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، آمين

سأتناول اليوم أيضا بعض التفاصيل عن صلح الحديبية. يقول مرزا بشير أحمد رضي الله عنه في بيان هذه الواقعة. تبقى في المعاهدات أحيانا بعض الثغرات التي تؤدي لاحقًا إلى نتائج مهمة. وقد بقيت ثغرة في صلح الحديبية أيضا، إذ ذُكرت في المعاهدة إعادة الرجال المسلمين، ولم يرد فيها ذكر للنساء اللواتي يقبلن الإسلام من أهل مكة ويأتين إلى المسلمين.

فسرعان ما ظهرت للعيان ظروف أدّت إلى تبيان هذه الثغرة للكفار. فبعد فترة قصيرة من المعاهدة، وصلت بعض النساء المسلمات إلى المدينة من مكة هاربات من أسر الكفار، أولهن أمّ كلثوم، ابنة الزعيم المشرك المتوفى عقبة بن أبي معيط، وهي أخت عثمان بن عفان رضي الله عنه من جهة الأم.

وصلت أمّ كلثوم إلى المدينة بشجاعة كبيرة ماشية على الأقدام، وحضرتْ أمام النبي ﷺ معلنة إسلامها. وسرعان ما لحقها أقاربها للقبض عليها وطالبين بإعادتها. وادّعوا أنه لا شك أن المذكورين في المعاهدة هم الرجال ولكن للمعاهدة صبغة عامة وتشمل الرجال والنساء على حد سواء.

أما أمّ كلثوم فادّعت أن المعاهدة لا تشمل النساء لأن المرأة جنس ضعيف وتُعدّ تابعة للرجل، وإعادتها يعني دفعها نحو موت روحي وحرمانها من الإسلام. لذلك لم يكن استثناء النساء من المعاهدة ضروريا من حيث المعاهدة فقط بل كان ضروريا بحسب مقتضى العقل والعدل أيضا. فحكم النبي ﷺ لصالح أمّ كلثوم، وأعاد أقاربَها صفر اليدين. أيد اللهُ تعالى هذا القرار، وأنزل في تلك الأيام آيات قرآنية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾، وإن كنّ متزوجات، فادفعوا مهرهن حتما لأزواجهن المشركين.

فمنذ ذلك الحين، كلما جاءت امرأة من مكة إلى المدينة كانت تُمتحن بدقة وتُفحَص نيّتُها وإخلاصها جيدا. واللواتي يُثبتن صدقهن وخلوص نيتهن بحيث لا تشوب هجرتهن شائبة دنيوية يُسمح لهن بالبقاء

في المدينة. وإن كن متزوجات، يُدفع مهرهن لأزواجهن، ثم يصبحن حرائر للزواج من المسلمين. (سيرة خاتم النبيين، صفحة ٧٧٢-٧٧٣)

كذلك ورد ذكر حادث آخر يتعلق بأبي بَصير ﷺ ضمن شروط المعاهدة المذكورة، وقد أورد مرزا بشير أحمد ﷺ تفصيله كما يلي:

كانت إحدى شروط معاهدة الحديبية أنه إذا جاء شخص من قريش إلى المدينة مسلما، فإن أهل المدينة لن يمنحوه اللجوء بل يعيدونه. أما إذا ارتد مسلم عن الإسلام وتوجه إلى مكة، فلن يعيده أهلُ مكة.

حُسب هذا الشرط مهينًا للمسلمين، لذلك كان بعض المسلمين مستائين منه، حتى إن الصحابي الجليل والفطين عمر بن الخطاب ﷺ كان مضطربًا وغير راضٍ في تلك الأجواء الحساسة، كأن برقا سقط على قلوب الذين كانوا مستائين من هذا الشرط، إذ حسبوا أنهم حُرموا من حقهم فكانوا مضطربين وغير راضين بالوضع السائد.

لكن سرعان ما ظهرت للعيان ظروف أثبتت أن هذا الشرط كان سببا لضعف قريش وقوة المسلمين لأنه كما قال النبي ﷺ منذ البداية: إذا ارتد مسلم من المدينة فسيكون عضواً منتنًا أو منافقا أو ممن كان في قلوبهم اعوجاج فكان ممكنا لهم أن يرتدوا عن الإسلام، فإذا أراد شخص مثلهم الخروج من المدينة فلا حاجة إلى إعادته إلى المدينة. لذلك قال النبي ﷺ منذ البداية إنه لا اعتراض لنا على تركه المدينة لأنه عضو منتن وبتره أفضل. لكن في المقابل، إذا خرج شخص من مكة مسلمًا بصدق قلبه، فسيكون سببًا لقوة الإسلام حيثما كان، وسيجعل الله له مخرجا.

وسرعان ما أثبت هذا المبدأ صدقه. فبعد فترة قصيرة من وصول النبي ﷺ إلى المدينة، وصلها من مكة شخص اسمه أبو بَصير عتبة بن أسيد الثقفي- وهو حليف قبيلة بني زهرة - مسلمًا وهاربًا من أسر أهل مكة.

أرسلتْ قريش رجلين للحاق به، والتمسوا من النبي ﷺ تسليمه لهما وفقًا لشروط المعاهدة. فاستدعى النبي ﷺ أبا بصير وأمره بالعودة إلى مكة. صرخ أبو بصير قائلاً: أنا مسلم، فسيؤذونني في مكة ويجبرونني على الردة عن الإسلام.

قال ﷺ: نحن مضطرون بسبب المعاهدة ولا يمكننا إبقاؤك هنا. وإذا صبرتَ لوجه الله تعالى سيفتح الله لك طريقًا. لكننا مضطرون ولا يمكننا نقض المعاهدة بأي حال. أقول: انظروا كم كان النبي ﷺ ملتزما بالمعاهدات والمواثيق.

فاضطر أبو بصير للعودة مع هؤلاء، لكن لما كانت في قلبه مخاوف شديدة من أنواع الظلم والتعذيب الذي سيتعرض له في مكة وسيضطر إلى إخفاء نعمة عظمى أي إسلامه، أو لعله يضطر إلى تركه بسبب التعذيب الشديد والإيذاء.

عندما وصلت القافلة إلى ذي الحُليفة- وهي على بُعد بضعة أميال من المدينة على طريق مكة- اغتنم أبو بصير الفرصة وقتل زعيم القافلة، وكاد يقتل الآخر أيضا ولكنه هرب حاميا نفسه ووصل إلى المدينة قبل أن يصلها أبو بصير.

عندما وصل هذا الشخص إلى المدينة، كان النبي ﷺ في المسجد. فلاحظ أنه قد أصابه الرعب قال له: يبدو أنك تعرضت لصدمة الذعر والرعب الشديدة. فروى الرجلُ قصته متلهفًا ولاهثا، وقال إن صاحبه قد قُتل و أنه أيضا تعرض للموت. سمع النبي ﷺ قصته وطمأنه. وفي هذه الأثناء جاء أبو بصير حاملًا سيفه وقال للنبي ﷺ: كنتَ قد سلّمتَني لقريش يا رسول الله، وانتهت مسؤوليتك، لكن الله أنقذني الآن من القوم الظالمين، و لم تعد عليك الآن أية مسؤولية تجاهي. قال النبي ﷺ بصورة عفوية ويْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ! لو كانَ له أحَدٌ.

تُقال هذه الكلمات في سياق التوبيخ أو التعجب مع تجاهل المعنى الحرفي لها، ومعنى قوله ﷺ: إن هذا الشخص يؤجج لهيب الحرب، وأتمنى أن يعتني به أحد.

فلما سمع أبو بصير هذا الكلام فهم أن النبي ﷺ سيأمره بالرجوع بسبب التزامه بالمعاهدة، وتقول عنه رواية البخاري: "فلما سمع ذلك عرف أنه سيردّه إليهم." أي فلما سمع أبو بصير كلام النبي ﷺ أدرك تمامًا أنه سيرده إلى أهل مكة في كل الأحوال، وعليه فخرج من هناك سرًّا، وبدلاً من ذهابه إلى مكة -حيث كان يرى موته الجسدي والروحي معًا- اتجه نحو ساحل البحر الأحمر ووصل إلى سيف البحر.

وعندما علم ضعاف المسلمين الذين كانوا قد أسلموا سرًّا في مكة بأن أبا بصير قد اتخذ له مكانًا منفصلا بسيف البحر، خرجوا تدريجيًا من مكة وانضموا إليه هناك. وكان من بينهم أبو جندل -ابن سهيل بن عمرو أحد زعماء مكة- الذي أعاده النبي ﷺ من الحديبية. (وقد ورد ذكره في الخطبة الماضية) لقد بلغ عدد هؤلاء الوافدين ما يقارب السبعين. وهكذا نشأت -إلى جانب المدينة- دولة إسلامية ثانية كانت تحت سلطة النبي ﷺ دينيًا، لكنها كانت مستقلة سياسيًا. فمن ناحية كان وجود نظام سياسي مستقل ومنفصل داخل حدود الحجاز مصدر قلق لقريش، وفي جانب آخر كان المهاجرون في سِيف البحر يسببون قلقًا لهم حيث كانوا مجروحين بشدة جراء تعامل أهل مكة؛ لذلك، لم يمضِ وقت طويل حتى اتخذت العلاقات بين مهاجري سيف البحر وقريش الشكلَ نفسه الذي نشأ في البداية مع مهاجري المدينة.

وبما أن سيف البحر كانت قريبة جدًّا من الطريق الذي يؤدي من المدينة إلى الشام، لذلك بدأت مواجهات هؤلاء المهاجرين مع قوافل قريش. وسرعان ما أخذت هذه الحرب الجديدة وضعًا خطيرًا، لأن قريشًا كانوا قد ضعفوا بسبب الحرب السابقة، كما باتوا أقل عددًا من ذي قبل.

وكانت الدولة الإسلامية في سيف البحر –التي كانت تحت قيادة فدائيين مثل أبي بصير وأبي جندل– مليئة بالطاقة المتأججة وبحماس الإيمان الجديد وبذكريات مؤلمة لظلم أهل مكة، بحيث كانت تأخذ أي مواجهة على محمل الجد، فكانت النتيجة أن قريشا استسلمت في وقت قصير وأرسلت وفدًا إلى النبي ﷺ، متذرعين بصلة القرابة وطالبين إلحاق المهاجرين في سيف البحر إلى المدينة وضمهم إلى نظامه السياسي، وذلك بعد أن تعبوا من هجمات حزب أبي بصير.

وكذلك أخبروا النبي ﷺ أنهم ألغوا طواعية الشرط في صلح الحديبية الذي ينص على عدم منح المسلمين الجدد من مكة اللجوء في المدينة. وهكذا فقد نقضوا هذا الشرط بأنفسهم بأن يُعاد من يأتي إلى المدينة من المسلمين. وكأنهم قالوا: يمكنكم أن تبقوهم عندكم.

وافق النبي ﷺ على هذا الطلب وأرسل رسالة إلى أبي بصير وأبي جندل يخبرهم بأن قريشًا قد عدلوا المعاهدة برضاهم، فيجب عليهم الآن الانتقال إلى المدينة. عندما وصل رسول النبي ﷺ إلى سيف البحر، كان أبو بصير مريضًا وراقدًا في حالة صحية حرجة. أمسك أبو بصير الرسالة المباركة بشغف، وبعد وقت يسير لفظ أنفاسه الأخيرة وهو في هذه الحالة.

توفي قائدهم، وبعد ذلك وصل أبو جندل وأصحابه إلى النبي ﷺ بمشاعر مختلطة من الحزن والفرح، بعد أن دفنوا قائدهم الشجاع والكريم أبا بصير في سيف البحر.

كان الحزن لأن قائدهم الشجاع أبا بصير، بطل هذه الواقعة، قد حُرم من تقبيل قدمي النبي ﷺ؛ والفرح لأنهم وصلوا إلى قدمي سيدهم ونجوا من المواجهة الدموية مع قريش.

يحرف المؤرخون غير المسلمين، حسب عادتهم، التاريخ ويعترضون على الإسلام باستمرار. وهناك اعتراضات اعترض بها المؤرخون المسيحيون فيما يتعلق بصلح الحديبية. وفي هذا السياق، كتب مرزا بشير أحمد رضي الله عنه كما يلي:

لا يوجد –في أغلب الأحيان– حدث مهم في سيرة الرسول ﷺ لم يعترض عليه المؤرخون المسيحيون، وواقعة صلح الحديبية أيضا تخضع لنفس الشيء. إذا تجاهلنا بعض الاعتراضات الهامشية وغير الجوهرية فيمكننا القول بأن المؤلفين المسيحيين قد طرحوا اعتراضين اثنين على صلح الحديبية:

الأول: لم يكن جائزًا من منظور المعاهدة استثناء النبي ﷺ النساء من شروط صلح الحديبية، لأن ألفاظ المعاهدة كانت عامة تشمل الرجال والنساء.

الثاني: فيما يتعلق بواقعة أبي بصير، فقد خرق النبي ﷺ روح المعاهدة، بل بإشارته إلى أبي بصير –بأنه يمكنه تشكيل جماعة منفصلة وإنجاز مهمته بدلاً من العودة إلى مكة– قد ارتكب مخالفة للمعاهدة.

في الرد على هذين الاعتراضين، ينبغي أولاً التذكر بأن هذه المعاهدة كانت مع قريش مكة، وهي القبيلة التي ناصبت النبي ﷺ العداء منذ بداية الإسلام. وعندما كانت المعاهدة قيد التفاوض، نرى كيف كان

ممثلوهم يقاطعون النبي ﷺ على أتفه الأمور. على أية حال، اعتاد هؤلاء على الاعتراض والطعن في كل مناسبة. كما أنهم لم يكونوا قبيلة بعيدة، بل كانوا من قبيلة النبي ﷺ وقومه الذين كانوا على دراية كاملة بجميع الظروف، فإن قريشًا –الذين تمت المعاهدة معهم– كانوا من قبيلة النبي ﷺ وقومه، فكانوا على علم بجميع الأمور وكانوا قد كتبوا هذه المعاهدة بكل التفاصيل. وعليه فإنهم كانوا يعرفون تمامًا إن كانت المعاهدة تشمل الرجال والنساء معًا أم لا.

وعلى أية حال، يكتب مرزا بشير أحمد: إن جميع تفاصيل شروط المعاهدة وخلفيتها الكاملة كانت أمام أعينهم. فحين لم يعترض على فعل النبي ﷺ قريشُ مكة الذين كانوا قد أبرموا هذا الميثاق و لم يعتبروه مخالفاً للعهد، فكيف يحق الاعتراض للذين أتَوا بعد ألف وثلاثمائة سنة والذين تخفى عنهم الكثير من التفاصيل الدقيقة ولا يملكون معرفة كاملة بخلفية هذا العهد؟ فأولئك المشركون لم يعترضوا، والمستشرقون المعاصرون يعترضون على الإسلام. ويصدق على ذلك مثلُ: "المدعي مقصر والشاهد نشيط"، حيث سكت من حصلت معهم هذه القصة معتبرين إياها صوابا، والذين جاؤوا بعد ثلاثة عشر قرنا يضخمونها كثيرا. فما السبب في أنه رغم أن القرآن وكتب الحديث وتاريخِ العرب مليئة بالاعتراضات التي كان كفار مكة والكفار الآخرون يثيرونها ضد النبي ﷺ والإسلام، لا نجد في أي مكان أن الكفار اتَهموا المسلمين بمخالفة صلح الحديبية؟ فلم يعترض أحد على ذلك لمدة طويلة. واليوم أدرك هؤلاء أن هذا الأمر محل اعتراض!!.

علاوة على ذلك، من الثابت بأقوى الشهادات أن النبي ﷺ حين أرسل بعد صلح الحديبية رسالة تبشيرية إلى قيصر الروم، كان أبو سفيان بن حرب رئيس مكة في الشام في ذلك الوقت، فاستدعاه هرقل إلى بلاطه وطرح عليه بعض الأسئلة عن النبي ﷺ، من بينها: هل خالف هذا المدعي للنبوة في قومك أي عهد؟ فأجاب أبو سفيان – وكان في ذلك الوقت رئيس المنكرين وألد أعداء الإسلام – بالكلمات التالية:

لا، لم يخالف محمد (ﷺ) أي عهد قط، ولدينا الآن عهد معه وأنا لا أستطيع أن أقول ما سيظهر من جانبه حتى نهاية هذا العهد. يقول أبو سفيان إنه لم يكن لديه في تلك المحادثة أي فرصة سوى هذا القول محاولةً لزرع شك محتمل في قلب هرقل ضد النبي ﷺ.

لم تحدث محادثة أبو سفيان وهرقل مباشرة بعد صلح الحديبية، بل من المؤكد أن إعداد الرسالة التبشيرية إلى هرقل وإرسالها ووصولها إليه وانعقاد مجلسه واستدعاء أبي سفيان بعد البحث عنه قد استغرق مدة، خاصة وأن السفر لم يكن سهلاً في ذلك الزمان. والظن الراجح أن الأحداث المتعلقة بأبي بصير وخروج بعض المسلمات كأم كلثوم من مكة ووصولهن إلى المدينة كانت قد وقعت. ولذلك ذكر المؤرخون كلُّهم واقعة أبي بصير وأم كلثوم قبل إرسال الرسالة إلى قيصر الروم.

ورغم ذلك، لم يستطع أبو سفيان في مجلس هرقل أن يتهم النبي ﷺ بنقض العهد، مع أن كلامه يُفصح أنه كان يتمنى أن يحط من شأن النبي ﷺ إذا وجد لذلك فرصة. لكن النقاد الذين جاؤوا بعد ثلاثة عشر قرنا لا يخشون الله عند إلصاق التهم بالنبي ﷺ بنقض العهد. الأسف كل الأسف.

إذا دخلنا في تفاصيل هذه الاعتراضات، تبين لنا سخفُها أكثر. على سبيل المثال، الاعتراض الأول هو أن المعاهدة كانت تشمل الرجال والنساء، لكن النبي محمدا ﷺ استثنى النساء عنوة. لكن هذا الاعتراض كما بيَّنا سابقًا باطل ولا أصل له من الصحة. فالكلمات الواردة في أصح الروايات تنص صراحة على أن المعاهدة كانت تشمل الرجال فقط وليس الرجال والنساء.

وكما ذكرنا سابقًا، فإن الألفاظ الواردة في صحيح البخاري للمعاهدة هي: "لا يأتِيك مِنا رجل وإِن كان على دِينِك إِلا رددته إِلينا."

مع وجود هذه الكلمات الواضحة غير القابلة للشك، فإن القول بأن المعاهدة كانت تشمل الرجال والنساء لا ينافي العدل فحسب بل يشكل خيانة شنيعة.

وإذا قيل إن في بعض الروايات التاريخية لم ترد كلمة رجل، بل وردت كلمة عامة يمكن أن يُفهم منها أنها تشمل الرجال والنساء، فالجواب هو أنه يجب أولا اعتماد الرواية الأقوى. وما دام لفظ "رجل" قد ورد في أصح الرواية، وجب اعتبارُه حصرا اللفظَ الصحيح.

علاوة على ذلك إذا تدبرنا فإن الألفاظ الواردة في الروايات التاريخية، تحمل نفس التفسير. فمثلاً في كتاب السيرة الأكثر شهرة لابن هشام، وردت عبارة "من أتى محمدًا مِن قريش بِغيرِ إِذنِ وليِه ردَّه عليهم."

صحيح أن هذه العبارة العربية لا تتضمن كلمة "رجل" صراحةً، لكن أي شخص لديه معرفة أساسية باللغة العربية يعلم أن العربية – على عكس بعض اللغات الأخرى – تستخدم صيغًا وضمائر مختلفة للرجل والمرأة. وفي العبارة المذكورة استُخدمت من البداية إلى النهاية، الصيغُ والضمائر الخاصة بالرجال فقط. لذلك، فوفقًا لقاعدة تفسير لغة المعاهدات، سيُفهم من هذه العبارة أنها تقصد الرجال فقط وليس الرجال والنساء.

ولا شك أن في الكلام العام، تُستخدم صيغة المذكر ويُقصد بها الرجال والنساء أحيانا. لكن من الواضح أن العبارة محل النقاش ليست من هذا النوع، بل هي عبارةُ معاهدةٍ لها مكانة قانونية، بل أعلى من ذلك. فكل كلمة فيها يتم اختيارها بتدبر وتفكير، وتُختار الكلمات بعد نقد كل فريق لها وموافقته عليها. لذا، في مثل هذه العبارة، يُختار حصرا المعنى الأكثر تحديدًا وتخصيصًا.

وقد سمعتم بالفعل تفاصيل الجرح والنقد في الخطبة السابقة. كيف اعترض ممثل الكفار بتفصيل دقيق. وبالتالي، فإن النتيجة من هذا الجانب أيضا تنحصر في أن هذه المعاهدة شملت الرجال فقط وليس الرجال والنساء.

علاوة على ذلك، كما ذكرتُ سابقا فإن المرأة –وهي تعتبر الجنس الأضعف– تعتمد عادةً على رحمة زوجها أو أقاربها من الرجال. وإرجاعها كان يعني أن يدفعها النبي ﷺ بيده إلى الكفر والشرك ثانية بعد إسلامها، وهذا لا يتنافى مع الرحمة والشفقة فحسب، بل ينافي العدالة أيضًا. لا شك أن إرجاع الرجل إلى كفار مكة أيضا كان فيه خطر استهدافه بصنوف العذاب، لكن الرجل رجل في كل حال، إذ هو أكثر احتمالا للأذى من المرأة، بل يمكنه السعي لنجاته بالاختباء أو الهروب أو تشكيل فرقة مع الآخرين، كما فعل أبو بصير، لكن ماذا يمكن أن تعمله امرأة ضعيفة؟ ليس نصيبها، والحال هذه، إلا الحرمان من الإسلام جبرًا أو الموت. لذا في مثل هذه الظروف، كان من المستبْعَد جدا من النبي ﷺ، ذلك الإنسان الرحيم الكريم، أن يرجع النساء المسلمات الضعيفات إلى أيدي الكفار الظالمين ليصبحن عرضة لاضطهادهم. إذن فما فعل النبي ﷺ كان عين الصواب نظرا إلى نص الاتفاقية، وليس هذا فحسب، بل أيضًا بالنظر إلى مبادئ العدل والإنصاف والرحمة والشفقة.

فالذين يعترضون على هذا القرار، ليس لهم إلا الندامة للأسف الشديد إذ لم يتورعوا عن بسط ألسنة الطعن حتى في التدابير التي اتُّخذت لحماية النساء الضعيفات.

والاعتراض الثاني هو على واقعة " أبي بصير"، ولكن التأمل يكشف أنه أيضا اعتراض سخيف وضعيف للغاية. صحيح أن النبي ﷺ قد اتفق في المعاهدة مع كفار مكة على أنه إذا هرب أحد، أيْ رجل، من قريش إلى المدينة، وإن كان مسلمًا، فلن يؤويه النبي ﷺ في المدينة بل سيردّه إليهم ولكن السؤال هو: هل خالف النبي ﷺ هذا الشرط من المعاهدة؟ كلا ثم كلا، بل قدّم ﷺ نموذجًا كاملًا ورائعًا للوفاء بالاتفاقية لا يقدر العالم على أن يأتي له بنظير.

فكِّروا كيف أن " أبا بصير" يقتنع بصدق الإسلام ويهرب من مكة فرارا من تعذيب الكفار، ويصل إلى المدينة سرًّا للحفاظ على إيمانه، ولكن أقاربه الظالمين يصلون إلى المدينة مطاردين له، ويريدون استرجاعه بالقوة ليردّوه عن تصديق الإسلام جبرا وقهرا. فيأتي كلا الطرفين إلى النبي ﷺ، ويتوسل "أبو بصير" إليه ﷺ بنبرة مشبعة بالبكاء والذعر قائلا يا رسول الله إن الله تعالى قد أنعم علي بنعمة الإسلام وأنت تعلم أن عودتي إلى مكة تعرّضني لحياة مليئة بالأخطار والاضطهاد، فأرجوك ألا تردني إليهم، بينما يطالب أقاربُه النبيَّ ﷺ برده إليهم قائلين إن بيننا وبينك معاهدة تلزمك بإعادة أي شخص منا يهرب إلى المدينة. كان النبي ﷺ يرى معاناة أبي بصير وغيرة الصحابة، بل يكابد في قلبه هيجانا من المشاعر الجياشة، ومع ذلك ظل هذا النبي الذي كان تجسيدا للصدق والأمانة ملتزما بالمعاهدة وثابتا

عليه كالصخرة، فأجاب أبا بصير بكلمات، ويا لها من كلمات رائعة: "يَا أَبَا بَصِير! تَعْلَمُ أَنَّنَا قَدْ عَاهَدْنَا هَؤُلَاءِ النَّاس، وَفِي دِينِنَا لَا يَجُوزُ نَقْضُ الْعَهْدِ". (انظروا هناك خطر على حياة إنسان، مع ذلك يقول النبي ﷺ لا يجوز نكث العهد في ديننا. فعلينا نحن الذين ننكث عهودنا البسيطة أيضا أن نفحص أنفسنا لنرى مدى حالتنا الإيمانية.ثم قال ﷺ:)

فَاذْهَبْ مَعَهُمْ. "وَإِنْ صَبَرْتَ وَثَبَتَّ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَسَيَجْعَلُ اللَّهُ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا."

وقد رأينا كيف جعل الله لهم مخرجا. وعند سماع أمر النبي ﷺ ذهب أبو بصير مع أهل مكة، ولكنه في طريقه إلى مكة قاتلَ هؤلاء الذين أخذوه أسيرا، وانتصر عليهم، وعاد ثانية إلى النبي ﷺ، فما إن رآه النبي ﷺ قال غاضبًا: وَيْلُ أمِّه، مِسْعِرُ حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَه أَحَد، أي ثكلته أمه، إنه سيشعل حربا، ليت هناك من يأخذ على يده.

فما إن سمع أبو بصير ذلك حتى أيقن أن النبي ﷺ سيعيده حتمًا، فهرب من المدينة خفيةً واتخذ له ملاذا في مكان منفصل بعيد.

فانظروا الآن إلى هذه الواقعة بمنظور العدالة وأخبروا هل يقع على النبي ﷺ أي مسؤولية لما حصل؟ وهل يمكن أن يثار ضده أي اعتراض؟ كلا، بل الحق أن النبي ﷺ عمل بالمعاهدة وهو يذبح عواطفه ومشاعره، وأعاد أبا بصير إلى الكفار ليس مرة واحدة، بل مرتين، وقال عند إعادته كلمات خالدة لا نجد لها نظيرا في تاريخ البشرية كله. لقد ذبح النبي ﷺ مشاعره ومشاعر أصحابه ومشاعر أبي بصير، والتزم بالمعاهدة في كل حال. فإذا كان أبو بصير قد تحرر بعد ذلك من قبضة المكيين وذهب إلى مكان آخر فكيف يصح الاعتراض على النبي ﷺ، وما هو الشرط الذي يلزم النبي ﷺ أن يعيد إلى أهل مكة في كل حال من يهرب منهم ويذهب إلى أي مكان؟

من المؤسف جدا أن أعداء الإسلام لم ينصفوا معه في أي قضية.

أما القول: كان بوسع النبي ﷺ أن يرسل لأبي بصير في معسكره أمره بأن يرجع إلى المدينة، ولأنه ﷺ لم يفعل ذلك فقد نقض المعاهدة روحًا وإن لم ينقضها شكلاً؟ هذا الاعتراض السخيف أيضا يثار. والجواب أن هذا الاعتراض التافه يدل على جهل صاحبه جهلاً تاما، وتدحضه المعاهدة نفسُها وروح كلماتها. كان من شروط المعاهدة أن أي مسلم من سكان مكة إذا هرب منها إلى المدينة، فعلى النبي ﷺ أن يرجعه إلى مكة. وهذا الشرط يؤكد بكل جلاء أن الهدف منه أن هذا الشخص، رغم كونه مسلما، لن يُقبَل داخل السلطة السياسية الإسلامية بالمدينة، بمعنى أن النبي ﷺ لن يعده داخل سلطته السياسية بالمدينة، مع كونه مسلما من حيث العقيدة. فما دام هذا الشخص قد عُدَّ بموجب شروط المعاهدة خارجا من السلطة السياسية الإسلامية بالمدينة فكيف يصح أن يُطالَب النبي ﷺ بأن يأمره

بالعودة ويعيده إلى مكة حيثما كان. فما أشدَّه مِن ظلم! إذ إن النبي ﷺ لو سمح لهذا الشخص بالإقامة بالمدينة فإنه ﷺ كان قد عاهد على أنه لن يدخله في نطاق سلطته السياسية بالمدينة، مع كونه مسلما. ولو أخرجه من سياسته المدنية وسلَّمه لأهل مكة وأخرجه من المدينة، لاعترضوا أنه لماذا لا يرسل إليه أمره بإدراجه في سياسته. لذا فسياسيًّا، هذا اعتراض واهٍ وضعيف وغير معقول بحيث لا يمكن لأي شخص عاقل الالتفات إليه.

والحق هو أن هذا الشرط غير المعقول الذي وضعه الكفار في المعاهدة – بعدم إيواء أي مسلم مهاجر في المدينة – قد جعله الله عذابًا لهم. فرسولنا التزم بالمعاهدة تماما، لكن الكفار أنفسهم زرعوا الشوك في طريقهم، وقطعوا أيديهم بأنفسهم.

عندما قلتم إن أي شاب من مكة يصبح مسلمًا ويذهب إلى المدينة لن يحتفظ به النبي ﷺ في المدينة وسيعتبر خارجًا من سياستها، فكيف يمكنكم المطالبة بأن يرسل النبي ﷺ هؤلاء الخارجين من سياسة المدينة من أي مكان إلى مكة بأمره وبسلطته؟ إنها فكرة جاهلية بالكامل.

لقد اشترطتم أنفسكم أن النبي ﷺ يمكن أن يحكم على أرواحهم وشؤونهم الأخروية، لكنه لن يكون حاكمًا على سياستهم وشؤونهم الدنيوية. سياسيًّا وحكوميًّا وقانونيًّا، لن يكون له حق عليهم. نعم، إنهم مسلمون روحانيًّا، انضموا إلى بيعة النبي ﷺ، وأسلموا وسيُعرفون بأنهم مؤمنون. لكن الكفار وضعوا شرطًا بأنهم لن يكونوا سياسيًّا تحت سلطة النبي ﷺ، وقد قبل النبي ﷺ ذلك. وعندما أخرجتموهم بأنفسكم من السلطة السياسة للنبي ﷺ، فكيف يجوز الاعتراض على النبي ﷺ؟

في النهاية، كان هذا مكر قريش مكة الذي ارتد عليهم، وكان عمل النبي ﷺ نزيها وظل نزيها. لقد أوفى بألفاظ المعاهدة عند إرسال أبي بصير من المدينة إلى مكة، وأوفى بروح المعاهدة كما كان المقصد الأصلي من الشرط، حيث أبقى أبا بصير وأصحابه خارج دائرة سياسته. وبالتالي، بقي صادقًا من كل جانب، بينما وقع كفار مكة في شباكهم التي ألقوها بأنفسهم، وانتهى بهم الأمر بالذل حتى جاؤوا إليه ﷺ ليقولوا إنهم يستبعدون هذا الشرط من المعاهدة.

وأما الزعم بأن النبي ﷺ بقوله: "وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرُ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ" – أشار إلى بدء الحرب. يعترضون أنه في هذه الكلمات طلب من أبي بصير بالإشارة أن يبدء بالحرب مع قريش من خلال إنشاء فرقة منفصلة– كم هو ظلم وعقلية سيئة وجهل بالظروف الحادثة. هذه الكلمات هي في الواقع دليل على صدق النبي ﷺ وكراهيته للحرب غير الضرورية. قوله هذا يعني أنه لماذا يريد إشعال نار الحرب، و لم تكن فيه إشارة لتأجيج الحرب، بل يتبين منه إظهاره للبراءة والانزعاج من فعل أبي بصير، وليس أنه يحرضه على الحرب بإشارة مخفية.

وإذا كان بعض المستشرقين – مثل السير وليام موير – يعتقدون أن كلمات "لو كان له أحد" تعنى أيضا "لو وُجد له رفيق"، لذا يُعلم من ذلك أنه إذا وجد أبو بصير مساعدًا فيمكن له أن يثير نار الحرب، ولذلك في كلامه إشارة إلى تحريضه على الحرب. فجوابه هو:

أولًا، المعاني التي قدمناها تتوافق تمامًا مع اللغة العربية والتاريخ، ولها أمثلة كثيرة في الأحاديث أيضًا. وحتى لو أخذنا المعنى الذي يريده وليام موير، فإن سياق العبارة لا يحتمل إلا هذا المعنى أن أبا بصير إذا وجد رفيقًا مؤيدًا سيشعل نار الحرب، لكن الحمد لله أنه لم يجد أي مساعد في المدينة. فيخرج منه المعنى أيضا أنه لو وجد رفيقا فهذا صحيح ولكن لا يوجد عندنا مثل هذا الرفيق الذي يساعده. فبغض النظر عن أي تفسير، فإن سياق الكلام والجمل البدائية تُثبت بشكل كافٍ أن نية النبي ﷺ كانت توبيخ أبي بصير لا تحريضه على الحرب.

هل يعقل أن يبدأ شخص كلامه بالسخط والملامة قائلا " وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرُ حَرْبٍ "، هل يمكن أن يقول بعدها ينبغي إشعال الحرب؟ على المرء ألا يفقد عقله في رغبة التشكيك والاعتراض. ولكن المستشرقين الذين يحسبون أنفسهم مثقفون ظاهريا عند ذكر شخصية النبي ﷺ وتاريخ الإسلام يبدؤون بقول أشياء منافية للعقل تماما.

والأمر الأكثر أهمية هو كيف أثرت هذه الكلمات على أبي بصير نفسه. وفي نفس الرواية يأتي: فلما سمع أبو بصير هذه الكلمات، أدرك أنه ﷺ سيرده إلى مكة، فهرب سرًا إلى اتجاه آخر.

للأسف الشديد، أن الشخص المخاطَب بهذه الكلمات فهم أن النبي ﷺ لم يحب فعله وسوف يعيده إلى مكة، ولكن هؤلاء القادمين بعد ثلاثة عشر قرنًا يقولون إن النبي ﷺ حرّض أبا بصير على تشكيل جماعة منفصلة وإشعال الحرب. ياللتعصب! يجب أن يكون هناك حد للظلم. هذه هي المعايير المزدوجة للمدعين بالإنصاف والتي خلقت الفساد في العالم دائمًا وما زال هذا الفساد مستمرا حتى اليوم. نسأل الله تعالى أن يمنح العقل للعالم وللمسلمين خاصة، وأن يحميهم من هذه الفتن الدجالية. (آمين)

*****